

نقد الأصول:

في سيرة السيرة النبوية منذ النشأة
حتى العصر الحديث

حسن بزائنية
باحث تونسي



قسم الدراسات الدينية

نَظَرْنَا لِأَمْرِ الْحَاضِرِينَ فَرَابْنَا فَكَيْفَ بِأَمْرِ الْغَابِرِينَ نُصَدِّقُ

وَمَا صَدَقْتْنَا فِي الْحَقَائِقِ أَعَيْنُ فَكَيْفَ إِذْ فِيهِمْ يَصَدِّقُ مُفَرَّقُ

معروف الرصافي، كتاب الشخصية المحمدية

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث بالتحليل للسيرة النبوية منذ نشأتها إلى غاية العصر الحديث، وبالنقد لأصولها. وينطلق البحث من الإرهاصات الأولى التي شكّلت السيرة النبوية، من خلال إثارة مشكلة المصطلح لغرض تبيان التمايز بين السيرة والسنة؛ على اعتبار أن الأولى أوسع مفهوماً ونطاقاً من الثانية. كما يقف البحث عند الفترة الأكثر حساسية من عمر السيرة النبوية، انطلاقاً من الغموض الذي أحاط بفترة التشكّل الأول للسيرة؛ وذلك لما تميزت به هذه الفترة من فترة الرواد الأوائل لهذا العلم، حيث دبّجت فيها الأقاويل، انتصاراً للشخص، أو عصبية، أو مذهب، وتضطرب في شأنها الآراء حتى تتناقض. ثم يعرج البحث إلى المرحلة، التي نشطت فيها حركة التدوين والتي ارتبطت بفترة تقييد المغازي والسير حتى القرن الخامس، والتي شهدت تذبذب المجموعة الإسلامية بين رغبة في حفظ تراث النبي وبين خشية من تلبس القرآن بأيّ كلام آخر، بما في ذلك الأحاديث النبوية؛ لكن التحليل لهذه المرحلة يستقر عند رأي أهل العلم الداعي إلى اعتبار أنّ حركة التدوين نشطت أواخر القرن الثاني، وأغلب المصنّفات التي وصلت إلينا تعود إلى العصور التي تلت هذه الفترة إلى غاية القرن الخامس، حيث دخل التأليف في السيرة مرحلة جديدة، ميّزتها ضخامة التأليف، والإغراق في تفصّي خصائص الرسول. وقد رأينا أن نورخ لكتابة السيرة في هذه الفترة، من خلال النظر في أهمّ المصادر التي يكثر ذكرها في أعمال المحدثين. ولعل ذلك ما دفع بالكتاب العرب إلى عدم الانقطاع عن كتابة السيرة النبوية، واستمرّ تصنيفهم للسير حتى دخلت الأزمنة الحديثة كمؤشر لطلوع فجر التأليف الحديثة في السيرة النبوية إلى غاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر. هذه الفترة كانت بمثابة عتبة الدخول في التاريخ الحديث. وفي الأخير، يخلص البحث إلى جملة من التساؤلات النقدية حول السيرة النبوية؛ منها: هل سئو اصل المرويات العتيقة المتلبّسة بالأهواء القديمة والتاريخ الإسلامي القديم سيادتها على أذهان المحدثين، أم سيشهد القرن العشرون تجديداً فعلياً في كتابة سيرة النبي، لا سيّما بعد اطلاع الكتاب العرب على الثقافة الغربية الحديثة، وعلى الثورة المعرفية في مجال الفيلولوجيا والتاريخ المقارن، ودراسة الأديان؟

1.1. تشكل السيرة النبوية: قضايا المصطلح

يبدأ الباحثون في تاريخ السيرة بالنظر في المصطلح نفسه؛ فهذا دالا فيدا (Della Vida)، في مقاله البليغ بدائرة المعارف الإسلامية، يشير إلى أن عبارة "سيرة" وردت في القرآن¹، في سياق كلام الله على عصا موسى: (قَالَ خذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى) [طه: 21]. وإذا نظرنا في بعض التفاسير نفهم أن "السيرة الأولى" معناها «كما كانت أول مرة»²؛ فالسيرة، هنا، مصدر بمعنى السيرورة. ويذكر ابن منظور في اللسان: «السيرة الطريقة. يُقال: سار بهم سيرةً حسنةً. والسيرة الهيئة. وفي التنزيل العزيز: (سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى)، وسير سيرة: حدت حديث الأوائل». ويُلَمَع صاحب اللسان إلى مسألة هامة وهي تلُّبَس السيرة باصطلاحات مُجاورة، إذ يفسر السيرة بالسنة، ويحتجّ بشعر لخالد بن عتبة ابن أخت أبي ذؤيب الهذلي، يقول فيه: [من الطويل]

فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سُنَّةٍ أَنْتَ سِيرَتَهَا *** فَأَوْلُ رَاضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُهَا³

وهكذا، يظهر الائتلاف بين الاصطلاحين. ومن المحدثين كذلك من يُفسر السنة بالسيرة، إذ يبدأ محمود أبو رية في تعريف السنة بقوله: «عرّفوا السنة لغةً بأنها الطريقة المعبّدة، والسيرة المتبّعة، أو المثال المتبّع، وجمعها سنن، وذكروا أنها مأخوذة من قولهم: سنّ الماء إذا ولى صبه»⁴.

لكن على الرغم من الائتلاف الظاهر بين السيرة والسنة، نرى أن السيرة تتميز من السنة بأمرين: أولهما أن السيرة أوسع من السنة وهي أقوال النبي وأفعاله؛ فالسيرة تاريخ حياة النبي يشمل "المبتدأ"، أي الفترة التي سبقت الدعوة. وثانيهما أن السيرة مفهوم لصيق بالأخبار⁵ والقصّ والأدب. ولا يزال بعض الباحثين يحشرون السيرة النبوية ضمن الأدب العربي؛ فهذا رافن (W. Raven)، صاحب مقال "سيرة" في دائرة المعارف الإسلامية الجديدة، يقول معرفاً السيرة إنها «إحدى أجناس الأدب العربي الناشئ»⁶. وتُصرّ حياة

1- مقال دالا فيدا ورد في الطبعة القديمة لدائرة المعارف الإسلامية:

- G. Levi Della Vida, Sira, in *E.I. (A.E)*, Tome IV, pp. 458-462

2- تفسير القرطبي للآية الحادية والعشرين من سورة طه.

3- ابن منظور، لسان العرب، (القاهرة: دار المعارف)، "سير".

4- محمود أبو رية، أضواء على السنة المحمدية، أو دفاع عن الحديث، ط 6 (مصر: دار المعارف، 1994)، ص 11

5- كان القدامى يُطلقون على علم التاريخ اسم "علم السير والأخبار".

6- ورد مقال رافن بدائرة المعارف الإسلامية في نشرتها الجديدة:

- *Encyclopédie de l'Islam*^(N.E), Sira, Tome IX, p. 686: «L'un des genres de la littérature islamique primitive».

عمامو على إطلاق مصطلح "أدب عربي" على السيرة النبوية⁷. أما السنة، فلا يخفى أنها أصل من أصول الفقه، ومجالها التشريع (المقدّس)، على خلاف الأدب والقصّ المتصّلين "بالمدّس" والإمتاع أشدّ اتصال. فما العلاقة بين السيرة والمغازي؟

إن المغازي أقرب الاصطلاحات من السيرة، وهو ما جعل بعض الدارسين يرى أنهما استعملتا في المعنى نفسه⁸؛ لكن ذلك لا يبدو لنا دقيقاً، إذ «يُجمع الدارسون للسيرة النبوية، فُدّامى كانوا أو محدّثين، على أنّ السيرة التي انطلقت أساساً من رواية الحديث كانت تعني في البداية تاريخ الرسول العسكري والغزوات»⁹. وهذا الرأي لا يخالفه باحثٌ حصيف في تاريخ السيرة¹⁰. لقد اتسعت المغازي لتشمل حياة النبي كآفة، فصارت سيرةً. ولا يغيب عنّا ونحن ننظر في قضايا المصطلح أن نبحت في علاقة السيرة بالتاريخ، إذ ارتبط التاريخ بسيرة النبي منذ نشأته الأولى؛ ففكرة التاريخ مرتبطة بحدث الهجرة، يقول التهانوي (ت 1745) في معرض حديثه عن نشأة التاريخ عند العرب: «فاستقرّ رأيهم على تعيين يوم من أيامه عليه الصلّاة والسلام لذلك، ولم يصلح وقت المبعث لكونه غير معلوم، ولا وقت الولادة للاختلاف فيه [...]، ولا وقت الوفاة لتنفّر الطّبع عنه؛ فجعل مبدأ الهجرة، وكانت الهجرة يوم الثلاثاء لثمان خلون من ربيع الأول [...]، وكان اتفاقهم على هذا سنة سبع عشرة من الهجرة»¹¹.

فالتاريخ الفعليّ لدى المسلمين لا يبدأ إلا مع الهجرة: «التاريخ بالهجرة نسخ كلّ تاريخ متقدّم»¹². وما حرّص المؤرّخين المسلمين على التحريّ في التاريخ الإسلاميّ إلا تأكيداً لما قيل، وقد اتّبع أغلبهم الطريقة الحوليّة في تأريخ الإسلام، ولم يلتزموا النهج نفسه في التّاريخ للحضارات القديمة. ويُعدّ تاريخ الطّبري أفضل

7- حياة عمّامو، تصنيف القدّامى في السيرة النبوية، ط 1 (تونس: المركز القومي للبيداغوجي، 1997)، ص 7-11-37...

8- ذهب إلى ذلك مارسدن جونس في تحقيقه لكتاب المغازي للواقدي (بيروت: [د.ت.]، ج 1، ص 19

9- محمّد مختار العبيدي، "علاقة المغازي بالسّير"، حوليات الجامعة التّونسيّة، العدد 17 (1979)، ص 183

10-Fathi Triki, *L'esprit historien dans la civilisation arabe et islamique* (Tunis: Maison Tunisienne de l'Édition & Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis, 1991), p. 126: «Les guerres édifcatrices de lacommunauté islamique vont être un objet privilégié de l'esprit historien naissant».

وفي هذا الكلام ربط متين بين الغزوات الإسلاميّة، ونشأة الفكر التّاريخي لدى العرب.

11- التهانوي، مقال "تاريخ" في كشّاف اصطلاحات الفنون.

12- عليّ أومليل، الخطاب التّاريخي، دراسة لمنهجية ابن خلدون، ط 3 (بيروت: دار التنوير، 1985)، ص 16. وانظر السّخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، تح. محمّد عثمان الخشت (الرياض: مكتبة السّاعي، 1989)، ص 38

مثال لهذه الواجهة في الكتابة التاريخية، إذ يكفي في القسم الذي أفرده للفترة السابقة للإسلام بالنقل¹³، ويتبع الطريقة الحولية المفصلة بصدد تاريخ الإسلام.

إن مصطلح "سيرة" سابق لمصطلح "تاريخ" ومستوعب له؛ فلا وجود للفظ "تاريخ" في التراث اللغوي الجاهلي، ولا في القرآن والحديث¹⁴. وقد عُرف علم التاريخ في التصنيفات الإسلامية للعلوم بعلم السير والأخبار¹⁵. كانت السيرة، إذن، أصلاً للتاريخ؛ ثم أصبحت، بمرور الزمن، فرعاً منه. أما باقي الاصطلاحات المجاورة للسيرة، فإنها تستوعب السيرة، وتستوعبها السيرة ضمن علاقة معقدة؛ فالقصة قد تكون قصة "دينية"، فتصبح السيرة قسماً من أقسام القصص¹⁶. أما الحديث، فهو مفهوم ثقافي متصل بأخبار النبي أساساً، قد يحتوي السيرة، ويُمكن للسيرة أن تقوم على الحديث. ولذا، يبدو رأي حمّادي المسعودي فاقداً للدقة، إذ يقول: «والمُتأمل في المادة التي احتوتها، كُتب السيرة النبوية يتبين أن لفظ "السيرة" اقترن بمفاهيم عديدة، مثل القصة والحكاية والخبر والحديث؛ إلا أنه يظلّ أشمل من تلك المصطلحات، لأنه يتسع ليضمّ تلك الأجناس كلها، إذ نجد في مصنفات السيرة تجاوراً بينها جميعاً.. أما المفاهيم الأخرى، فلا تتسع لتحتوي طيها جنساً آخر»¹⁷.

2.1. الفترة الغامضة من عمر السيرة

لم نجد أفضل من هذه العبارة إبانة عن السرداق الذي أحاط بفترة التشكّل الأول للسيرة. وقد استعملها عبد الله إبراهيم في مقام حديثه عن السيرة النبوية، ضمن بحثه في السردية العربية¹⁸؛ ففترة الرواد الأوائل لأي علم تُدبج فيها الأقاويل، انتصاراً لشخص، أو عصبية، أو مذهب، وتضطرب في شأنها الآراء حتى تتناقض.

ولا يختلف أمر الريادة في رواية السيرة وتدوينها، إذ نعتقد أن طبقة من المُشغّلين بالمغازي والسير وُجدت قبل التدوين، وأسهمت في تشكّل المرويات التي وصلت إلينا في المصادر المختلفة، وقد ترجم القدامى

13- قال الطبري في خطبة كتابه: "فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ممّا يستكره قارئه أو يستشعنه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يُؤت في ذلك من قبيلنا، وإنما أتى من قبيل بعض ناقله إلينا وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا"، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2 (مصر: دار المعارف، 1967)، ج 1، ص 8

14- أومليل، الخطاب التاريخي، مرجع سابق، ص 14

15- المرجع نفسه، فصل "التاريخ ومفهومه".

16- ينقل محمد القاضي في بحثه: الخبر في الأدب العربي، دراسة في السردية العربية، رأي محمد يوسف نجم في أقسام القصص وضمناها القصص الديني، ط 1 (تونس؛ بيروت: كلية الآداب بمنوبة؛ دار الغرب الإسلامي، 1998)، ص 103

17- حمّادي المسعودي، «فنيات قصص الأنبياء في التراث العربي»، (دكتوراه دولة، كلية الآداب بمنوبة، تونس، 2000)، الفصل الثاني: "القصص النبوي في التراث"، ص 42 [مرقونة ورقمها بمكتبة الكلية T 1644].

18- عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ط 1 (بيروت؛ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1992)، ص 127

والمحدثون لهذه الطبقة¹⁹. ونحن نجتزئ بإبراز المنازع التي حكمت رواية الرواد المشهورين، الذين يتواتر ذكرهم في مختلف السير القديمة منذ ابن هشام (ت 218 هـ)، ولم نر كبير فائدة في الترجمة المُسهَّبة لهم.

دأب بعضُ الكُتَّاب المحدثين على إقامة جداولٍ تُحصي طبقات الرواة الأوائل للسيرة، وقد رأينا أن نستفيد منها جميعاً، إذ تتكامل على اختلافها. فإذا نظرنا يقع على نموذجين من هذه الجداول؛ أحدهما لأحمد أمين، والثاني لعبد الله إبراهيم²⁰، فاستخرجنا من العملين جدولاً يضم ما كاد الجماعة يتفقون عليه. وحاولنا أن نزيد الترتيب إيضاحاً:

الطبقة الأولى	الطبقة الثانية	الطبقة الثالثة ²¹
* عروة بن الزبير بن العوام، راوية مدني (ت 94 هـ / 712 م).	* عاصم بن عمر بن قتادة، راوية مدني (ت 120 هـ).	* موسى بن عقبة، تلميذ الزهري، راوية مدني (ت 141 هـ / 758 م).
* أبان بن عثمان بن عفان، راوية مدني (ت 105 هـ / 723 م).	* محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، راوية مدني (ت 124 هـ).	* معمر بن راشد (ت 154 هـ، حسب سزكين)، روى عن الزهري، ويعدده أحمد أمين راوية بصرياً.
* وهب بن منبه، راوية يماني (ت 110 هـ).	* عبد الله بن أبي بكر بن حزم، راوية مدني (ت 135 هـ).	* محمد بن إسحاق المطلبلي، صاحب السيرة وتلميذ الزهري، مدني (ت 150 هـ / 768 م)

أشرنا، في مبدأ الحديث، إلى أن رواية السيرة المتقدمين يتفاوت تأثيرهم في اللاحقين؛ فمنهم من تكثرت الرواية عنهم في السير التي وصلت إلينا، كسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري... ومثل عروة بن الزبير ومحمد بن إسحاق يُغني في هذا المقام. ومن الرواد المذكورين من يخبو ذكره في السير المتقدمة،

19- هناك تراجم مفيدة لرواة السيرة المتقدمين نذكر منها خاصة:

- محمد بن إسحاق النديم، الفهرست، الفن الأول من المقالة الثالثة.

- هوروفتس، المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار، طبعة سنة 1949. وهذا الكتاب منهوب، وعمدة كثير ممن كتب في المغازي والسير.

- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج 2، الفصل السابع.

- عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، (بيروت: دار المشرق، 1983).

- فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي (قم بايران: 1983)، المجلد الأول، الجزء الثاني. وسزكين كثير النقل عن الدوري.

20- أمين، ضحى الإسلام (بيروت: دار الكتاب العربي، 2005)، ج 2، الفصل السابع، ص 485. وعبد الله إبراهيم، السردية العربية، مرجع سابق، ص 128. وقد اعتمد الكاتب على جدول لهوروفتس وجدول لمارسدن جونز، محقق كتاب: المغازي للراقي.

21- زاد هوروفتس طبقة رابعة نعتقد أنها تجاوز فترة الرواد المتقدمين.

كشرحبيل بن سعد، إذ لم يرو عنه ابن إسحاق والواقدي، ونقل عنه ابن سعد خبراً يتيماً في الطبقات²². فآثرنا أن نهتمّ بأبرز الرواة وأبلغهم تأثيراً في كتب السيرة، وهم حسب التعاقب التاريخي:

• عروة بن الزبير بن العوام

يُعدّ عروة (ت 94 هـ)²³ تابعياً من أشرف قريش، وأمّه أسماء بنت أبي بكر، وخالته عائشة زوج الرسول، وعمته خديجة بنت خويلد زوج الرسول الأولى، وأخوه عبد الله بن الزبير، وكان عروة من فقهاء المدينة السبعة. وقد وفد على عبد الملك بن مروان بدمشق بعد مقتل أخيه عبد الله، ثم وفد على ابنه الوليد، وحدثت عن السيدة عائشة التي شاركت في "قاصمة" من قواصم المسلمين يوم الجمل سنة ست وثلاثين من الهجرة.

ويعتقد الدوري أنّ ما وصل إلينا من مقتبسات عن عروة في كتب ابن إسحاق والواقدي والطبري وابن سيّد الناس وابن كثير «هي أقدم ما وصلنا من تاريخ المغازي»²⁴؛ لكنّ هشام جعيط يُشكك تشكيكاً تاريخياً وجيهاً في تلك المقتبسات: «وخِلافاً للدكتور عبد العزيز الدوري، لا أعتقد بالصحة التاريخية لما روي عن الزهري عن هشام بن عروة عن عروة عن عائشة، فالأسانيد بصفة عامّة غير مقبولة من المؤرّخ؛ لأنها سلسلة أسماء وُضعت بعد الأثر»²⁵.

إنّ ما أثر عن عروة لا يُمكن إلا أن يكون تأويلاً وانتقاء²⁶، ثم إنّ هذه المرويات لم تصل إلينا إلا من خلال رواية وأسانيد؛ فداخلها بلا شك ما يداخل الأخبار من "وهم"، كما نبّه إلى ذلك ابن خلدون منذ قرون.

22- سزكين، تاريخ التراث العربي، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص 72. ويورد ابن سعد خبراً واحداً في السيرة عن أبان بن عثمان يتعلّق بغزوة بدر (ج 4، ص 43)، وخبرين يتعلّقان بالخليفة عمر بن الخطاب (ج 3، ص 360)، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر، [د.ت.]).

23- انظر سزكين: مرجع سابق، ص 70-71، وأحمد أمين، ضحى الإسلام، ط 10 (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية [د.ت.])، ج 2، ص 321-322، وخاصة ما كتبه الدوري عن عروة في: بحث في نشأة علم التاريخ، مرجع سابق، ص 61-77.

24- الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، مرجع سابق، ص 21.

25- هشام جعيط، في السيرة النبوية 1: الوحي والقرآن والنبوة، ط 2 (بيروت: دار الطليعة، 2000)، ص 135-136، الهامش 73.

26- حول انتقائيّة المؤرّخ وعمله التأويلي، راجع:

- E. Hallet Carr, *Qu'est-ce que l'histoire?* (Paris: La Découverte, 1988): «L'historien est nécessairement sélectif», p. 57.

• وهب بن منبه

إخباري من أهل اليمن، توفي سنة 110 هـ أو 114 هـ. ويرجع هوروفتس أن وهباً وُلد مسلماً، ولم يكن من أهل الكتاب الذين أسلموا²⁷. وقد دأب الكتاب العرب، منذ القديم، على اعتبار وهب وريث كعب الأحبار (ت 32 هـ) ويهودياته²⁸. ومهما يكن الأمر، فإن لوهب اطلاعاً جيداً على الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية²⁹.

ويُعدّ وهب بن منبه، حسب الدّوري، مخترع هيكل التاريخ الذي يبدأ بالخلقة، ثم تاريخ العهد القديم، فالأنبياء، وهكذا³⁰. وقد ضعّف بعض القدامى والمحدثين مرويات وهب، إذ ذكر السّخاوي أنّ قصصه لا يُوثق بها³¹. ويصّبّ الشّيخ محمود أبو ريّة جام نقده على وهب بن منبه وسلفه كعب الأحبار، ناقلاً في ذلك آراء أستاذه محمد رشيد رضا: «إنّ شرّ رواة هذه الإسرائيليات، أو أشدهم تلبساً وخذاعاً للمسلمين، هذان الرجلان؛ فلا تجد خرافة دخلت في كتب التفسير والتاريخ في أمور الخلق والتكوين والأنبياء وأقوامهم والفتن والساعة والآخرة، إلا وهي منهما مضرب المثل: في كلّ واد أثر من ثعلبة»³². وقد ولي وهب القضاء لعمر بن عبد العزيز³³؛ وهو ما يجعله راوية شديد الصلة ببني أمية، فكيف يُمكن للباحث أن يثق في روايات وهب النّي عول عليها ابن إسحاق ومن بعده ابن هشام، فالمحدثون؟

• محمّد بن مسلم بن شهاب الزّهري

توفي الزّهري سنة أربع وعشرين ومئة من الهجرة، وتراجمه وفيرة في المصادر القديمة والحديثة. وقد صنّف هوروفتس والدّوري بحثين هامّين عن الزّهري³⁴. ومن ثم، نكتفي هنا بالإشارة إلى كونه راويةً مدنيّاً، بل مؤسس مدرسة المغازي بالمدينة، ويذكر ابن كثير أنّه تابعي³⁵.

27- هوروفتس، المغازي الأولى، مرجع سابق، ص 27-28

28- وردت العبارة على لسان ابن عباس: "فطارت من ابن عباس شظية وقعت أخرى غضباً، ثم قال: كذب كعب الأحبار، قالها ثلاثاً، بل هذه يهودية يُريد إدخالها في الإسلام"، عرائس المجالس، للثعلبي [ت. 427هـ] (بيروت: دار الفكر، 2000)، ص 19

29- هوروفتس، المغازي الأولى، مرجع سابق، ص 30-31

30- الدّوري، بحث في نشأة علم التاريخ، مرجع سابق، ص 26

31- المرجع نفسه والصفحة.

32- محمود أبو ريّة، أضواء على السنة المحمّدية، أو دفاع عن الحديث، ط 4 (مصر: دار المعارف، 1976)، ص 174

33- الدّوري، بحث في نشأة علم التاريخ، مرجع سابق، ص 104

34- هوروفتس، المغازي الأولى، مرجع سابق، ص 49-68

35- ابن كثير، البداية والنهاية (بيروت: دار المعارف، [د.ت.])، ج 9، ص 340

إنَّ عُمدة الزَّهري في الرواية هو عُروة بن الزبير، وقد كان الزَّهري موالياً لبني أمية، إذ «وفد على عبد الملك بدمشق [...] فأكرمه وقضى دَيْنه وفرض له في بيت المال، ثمَّ كان بعد من أصحابه وجلسائه، ثم كان كذلك عند أولاده من بعده الوليد وسليمان، وكذا عند عمر»³⁶. وقد استقضى يزيد بن عبد الملك الزَّهري، وجعله هشام مؤدباً لولده³⁷؛ فطبعي أن تخضع رواية الزَّهري لاختيار أموي، كما يذهب إلى ذلك علي أو مليل³⁸. ولا نرى في ما أورده الدَّوري من أخبار عن نزاهة الزَّهري العلميَّة³⁹ حُججاً بليغة، إذ يعسر وحال الزَّهري ما رأيت من خدمة السُّلطان ألا يكون هواه أمويّاً.

لقد اتصل اسم الزَّهري في الأسانيد باسمي ابن إسحاق وعُروة بن الزبير (ابن إسحاق يروي عن الزَّهري، والزَّهري يروي عن عُروة)، فكان بدهياً أن تنتقل مرويات الزَّهري إلى السَّير اللاحقة جميعاً، إذا علمنا ما لابن إسحاق وسيرته من أثر في كتب السَّيرة بأجمعها.

• محمّد بن إسحاق

محمّد بن إسحاق المطَّلبي مولى مدني و«أحد التابعين [...] لرؤيته أنسا رضي الله عنه»⁴⁰. ويمثل ابن إسحاق مرحلة الخروج من عتمة التَّاريخ، إذ هو صاحب «أقدم سيرة تكاد تكون محفوظة بكليَّتها»⁴¹. وهذه السَّيرة تكاد أيضاً تكون مصدرَ أغلب السَّير اللاحقة منذ ابن هشام (ت 218 هـ).

إنَّ سيرة ابن إسحاق التي تُوسم بالمبتدأ والمبعث والمغازي، تُورِّخ في المبتدأ للأنبياء السَّابقين وتنتقل أخبار القبائل العربيَّة، وأخبار جدود النبيّ. أمّا المبعث، فيشمل تاريخ النبيّ بمكّة، فالهجرة، حتّى غزوة بدر. ثم يعرض ابن إسحاق في المغازي سيرة النبيّ في المدينة حتى وفاته.

ويذكر الخطيب البغدادي (ت 463 هـ) أن ابن إسحاق وضع كتابه في السَّيرة بأمر أبي جعفر المنصور⁴². وبناء عليه، يقرّر أو مليل أنّ كتابة ابن إسحاق لا يمكن أن تكون نزيهة، لا سيّما وقد رافقت بداية

36- المرجع نفسه، ج 9، ص 341

37- الدَّوري، بحث في نشأة علم التَّاريخ، مرجع سابق، ص 100

38- علي أو مليل، الخطاب التَّاريخي، مرجع سابق، ص 18-19

39- الدَّوري، بحث في نشأة علم التَّاريخ، مرجع سابق، ص 100

40- السَّخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ التَّاريخ، تج. محمّد عثمان الخُشت (الرياض: مكتبة السَّاعي، 1989)، ص 105

41- الدَّوري، بحث في نشأة علم التَّاريخ، مرجع سابق، ص 27

42- يذكر البغدادي خيراً مفاده أن ابن إسحاق وضع كتابه بأمر من المهدي، لكنه يرجّح أن يكون الأمر هو المنصور: تاريخ بغداد، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، [د.ت.]، ج 1، ص 221

دولة كان فيها الصّراع الإيديولوجي شديداً⁴³. وما يشدّ القارئ لتراجم ابن إسحاق وأخباره في المصنّفات القديمة هو إجماعها على انتقاده، إذ يقول النديم في **الفهرست**: «صاحب السيرة، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يسار، مطعون عليه، غير مرضي الطريقة»⁴⁴. ونقل صاحب كتاب **المحن** الخبر الآتي: «كان ابن إسحاق من أجمل النّاس وأحسنهم شعراً، فكان يصلّي في آخر الصّفوف، ليفتنّ النّاس بجماله، فأخذه والي المدينة، فحلّق رأسه مصلباً، وضربه وأخرجه من المدينة»⁴⁵. وذكر التميمي، قبل هذا، أنّ ابن إسحاق: «بلي بأهل المدينة، كانوا يشنّعون عليه»⁴⁶. ولعلّ ما رُمي به ابن إسحاق من تشييع⁴⁷ كان سببا للقدح فيه، وفي رواياته. وقد عاب عليه القدامى ضعفه في علم الشعر، إذ قال محمد بن سلام الجمحي (ت 231 هـ): «وكان ممّن أفسد الشعر وهجّنه وحمل كلّ غثاء منه محمد بن إسحاق بن يسار»⁴⁸.

لقد دشّن ابن إسحاق مرحلة خطيرة في كتابة السيرة، إذ دمج بين مناهج الرّواة السابقين، فأخذ عن وهب بن منبّه قصص القرون الغابرة، واستفاد من أساتذته المحدثين بالمدينة، الزّهري وعروة بن الزبير. ولسيرة ابن إسحاق روايتان مشهورتان هما رواية زياد بن عبد الله البكائي (ت 183 هـ) التي "هدّبها" ابن هشام، ورواية يونس بن بكير (ت 199 هـ) التي نشر منها محمد حميد الله قطعة محقّقة⁴⁹. ولم تنج سيرة لاحقة من تأثير هذه السيرة؛ لكنّ المحدثين يسهّون، في أحيان كثيرة، عن انتقاد بعض ما انتقده القدامى على ابن إسحاق.. فهل كان القدامى أكثر جرأة وأقلّ تقديساً للسلف من المحدثين؟

3.1. تقييد المغازي والسّير حتى القرن الخامس

إنّ نشأة السيرة، كالحديث، تُخبر روايات بوجوب تدوينه وتُخبر أخرى بالنّهي عن ذلك. وقد أورد محمود أبو ريّة بعض أخبار وأحاديث عن الرّسول والصّحابة «تتهي كلّها عن كتابة أحاديثه صلّى الله عليه وسلم»؛ كالحديث الذي نقله عن صحيح مسلم: "لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن، فمن كتب عني غير القرآن فليمّحه"⁵⁰.

43- أواميل، الخطاب التاريخي، مرجع سابق، ص 19-21

44- النديم، الفهرست، تحقيق مصطفى الشومي (تونس: دار التونسية للنشر؛ الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985)، ص 422

45- أبو العرب محمد بن أحمد التميمي (ت 333 هـ)، كتاب **المحن**، تج. يحي وهيب الجبوري (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988)، ص 376

46- المرجع نفسه، ص 375

47- يذكر الدوري أنّ تهمة التشييع لا تخلو من أساس: بحث في نشأة علم التاريخ، مرجع سابق، ص 29

48- الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تج. محمود محمد شاكر (القاهرة: 1974)، ج 1، ص 7-8

49- نشر محمد حميد الله قطعة من كتاب ابن إسحاق: **المبتدأ والمبعث والمغازي**. وتبدأ بذكر نسب النبي حتى غزوة أحد (قونية بتركيا: 1401/1981).

50- أبو ريّة، أضواء على السنة المحمدية، أو دفاع عن الحديث، ط 6 (مصر: دار المعارف، 1994)، ص 19 [فصل "النّهي عن كتابة الحديث"].

وفي الأمر بتدوينه، أورد الخطيب البغدادي في باب "ذكر ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: قيّدوا العلم بالكتاب" أحاديث تأمر بتدوين العلم وتُجيز ذلك⁵¹.

أما المغازي، فتشير أخبار إلى رغبة بعض حُكام المسلمين المتقدمين بتدوينها، فقد ذكر محمد بن سعد بن منيع (ت 230 هـ) في **الطبقات الكبرى** أنّ عبد الملك بن مروان رأى كتاباً في المغازي بين يدي أحد أبنائه، فأمر بإحراقه⁵². وتنقض أخبار أخرى هذا الخبر، كالرواية التي أوردتها الخطيب البغدادي في أمر أبي جعفر المنصور محمد بن إسحاق أن يضع المغازي لابنه المهدي⁵³. ومهما يكن من أمر هذه الروايات التي لا نثق كثيراً في صحتها التاريخية، فإنها تعبر عن تذبذب المجموعة الإسلامية بين رغبة في حفظ تراث النبي، وخشية من تلبس القرآن بأيّ كلام آخر؛ بما في ذلك الأحاديث النبوية.

لقد أصبح راسخاً لدى أهل العلم أنّ حركة التدوين نشبت أواخر القرن الثاني، وأغلب المصنّفات التي وصلت إلينا تعود إلى العصور التي تلت هذه الفترة؛ ولكن بداية التدوين الفعلي في أواخر القرن الثاني لا يُسوّغ الشكّ المُطلق في وجود وثائق مبكّرة سابقة لمرحلة تدوين السيرة والمغازي مع ابن إسحاق (ت 150 هـ)، والواقدي (ت 207 هـ)...

إنّ هذا الشك لا يقلّ غلواً عن التسليم بأخبار السيرة، وقصصها الغريب في كتب المتأخرين، ك **السيرة الحلبية** لعلّي بن برهان الدّين الحلبي (ت 1044 هـ/ 1634 م). ولم الشكّ المبرّح في الوثائق المبكّرة، وقد وصلت إلينا رسائل ديوانيّة في ورقها الأصلي البرديّ، وهي تعود إلى أواخر القرن الأول مثل برديات مصر⁵⁴. ويتحدّث المؤرخون القدامى عن رسائل جميريّة، وكتب أنساب حُفظت في كنائس الجيرة⁵⁵. ولا تخلو كتب السيرة من "رواسب" تاريخية، وإن بُعدت عن أن تكون تاريخاً صريحاً. ولهذا، نرجّح أنّ كُتّاب المغازي والسير الأوائل اتّخذوا وثائق وتقييداتٍ سدّى في نسيج مؤلّفاتهم التي وصلت إلينا.

51- الخطيب البغدادي، **تقييد العلم**، راجعه الدّاني بن منير، (بيروت؛ صيدا: المكتبة العصرية، 2001). والمقصود بالعلم في الكتاب الحديث خاصة، وقد ذكر البغدادي قبل هذا أخباراً في نهى الرسول عن الكتاب: "باب نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الكتاب"، وهو الباب الأول من الكتاب.

52- ابن سعد، **كتاب الطبقات الكبرى**، تج. زياد محمد منصور، ط 4 ([د. م.]: الجامعة الإسلامية، [د. ت.])، ج 5، ص 149

53- البغدادي، **تاريخ بغداد**، مرجع سابق، ج 1، ص 221

54- وداد القاضي، "نحو منهج سليم في قضية موثوقية الرسائل العربية الإسلامية المبكرة"، ص 3، وص 8، مداخلة مرقونة، ندوة التراث وقضية المنهج، دار المعلمين العليا بسوسة، 1989. وأقدم الرسائل التي تحدّثت عنها وداد القاضي تعود إلى سنة 90 هـ. وقد أشار مُحققا كتاب أنساب الأشراف للبلاذري إلى وجود أوراق من مغازي وهب بن منبّه ضمن أوراق البردي العربية التي عُثِر عليها بمصر. البلاذري، **أنساب الأشراف**، تج. سهيل زكار ورياض زركلي، ط 1 (بيروت: دار الفكر، 1996)، ج 1، ص 277، هـ 1

55- الدّوري، **بحث في نشأة علم التاريخ**، مرجع سابق، ص 11، وما بعدها

أ. المصادر الكبرى المتقدمة

سنتهم، في حديثنا عن السير المدونة منذ أواخر القرن الثاني حتى القرن الخامس، بالأثار التي اشتهرت لدى المحدثين واتخذوها عمدة في مصنفاتهم عن الرسول. وسنحاول أن نبرز الأطوار المتعاقبة التي مرت بها كتابة السيرة النبوية.

يُعدّ كتاب المغازي⁵⁶ لأبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي (ت 207 هـ) أقدم مصادر السيرة التي وصلت إلينا. وقد عاش الواقدي في عصر نشطت فيه حركة جمع اللغة والأخبار، وظهر فيه أساطين الرواة؛ مثل أبي عمرو بن العلاء (ت 157 هـ)، وهشام بن محمد الكلبي (ت 204 هـ) والنسابة، والمدائني الإخباري (ت 225 هـ)... وقد جاء كتاب المغازي ضمن هذه الحركة "الإخبارية" مهتماً بتاريخ الرسول العسكري، فأسقط الواقدي المبتدأ والمبعث، واقتصر على ذكر مغازي الرسول في المدينة. وهو في كتابه متبع لمنهج ثابت، إذ يبدأ بذكر العام الذي خرجت فيه الغزوة، ثم يذكر تاريخ رجوعها، ثم يُورد أخبار الغزوة مفصلةً.

ويُمكن أن نُعدّ الواقدي ممثلاً لتيار أهل المدينة في الرواية؛ فهو في مغازيه أخذ عن رواةها، الزهري وموسى بن عُقبة... وقد كان الواقدي على صلة متينة بالعبّاسيين، فارتحل إلى بغداد حيث عينه المأمون قاضياً على الرُصافة⁵⁷، وأجزل البرامكة من قبل وفادته⁵⁸. وفي ضوء هذه العلاقة، نفهم سبب إسقاط الواقدي لاسم العباس من قائمة أسارى بدر⁵⁹، فالمؤرخ مثلما تقدّم انتقائي ضرورةً.

أتم أبو عبد الله محمد بن سعد (ت 230 هـ/ 845 م)، "كاتب الواقدي"⁶⁰ وتلميذه، عمل أستاذه؛ فوضع سيرة وافية لحياة النبي، لم يقتصر فيها على المغازي، بل وسّعها لتضمّ حياة النبي قبل المبعث وبعده. واهتمّ بحياة الصحابة والتابعين، وأفرد للنساء الصحابيات قسماً من الكتاب.

وصل إلينا كتاب الطبقات الكبرى⁶¹ برواية تلميذ أبي سعد أبي أسامة البغدادي (ت 282 هـ) والحسين بن فهم (ت 289 هـ)، ولا نعرف بدقة ما فعلت رواية هذين التلميذين بالكتاب؟ وقد اعتمد ابن سعد في طبقاته على كتاب الواقدي، ورواة أهل المدينة من أمثال ابن إسحاق وموسى بن عُقبة... وهكذا، بدأ التاريخ في

56- الواقدي، المغازي، تحقيق مارسدن جونز (Marsden Jones)، (أكسفورد: 1966).

57- هوروقنس، المغازي الأولى، مرجع سابق، ص 113

58- المرجع نفسه والصفحة.

59- المرجع نفسه، ص 125، حيث يقول: "ومن الواضح أن احترام البيت الحاكم هو سبب حذفه اسم العباس من قائمة خصوم النبي في بدر".

60- النديم، الفهرست، مرجع سابق، المقالة الثالثة، الفن الأول، ص 446

61- طبعة دار صادر، بيروت 1985 [في ثمانية أجزاء].

استنساخ الأخبار بتوخي منهج الإسناد "الشَّرعي"، ويجب أن ننتظر ابن خلدون (ت 808 هـ) لتحدث الثورة النظرية -في الأقل- على التقليد والمقلّدين بالاحتكام إلى قوانين العمران في تعبير الأخبار ونقدها، فيتخلّص علم التاريخ من سلطة العلوم الشرعية، ويلتحق بالحكمة (الفلسفة)⁶². فهل تنبّه المحدثون إلى ما جناه الاستنساخ على التاريخ من ترسيخ لأغاليط كثيرة؟

إن سيرة أبي محمّد عبد الملك بن هشام الحميري (ت 218 هـ / 833 م) أشهر مصنّفات السيرة بلا مدافع، وقد بلغت مرتبة من التقديس ضاهت بها **صحيح البخاري** (ت 256 هـ) وكتاب **الشفاء** للقاضي عياض (ت 544 هـ)؛ بل إن سيرة الرسول، في أذهان كثير من المسلمين، هي تلك السيرة التي صنّفها ابن هشام! ولما فحصنا عن أمر نصيب من الكتب الحديثة في السيرة النبوية، ألفينا كتاب ابن هشام عمدة المؤلفين المحدثين، فما خبر هذا الكتاب؟

أبو محمّد عبد الملك بن هشام الحميري «كان مؤرخاً وعالمًا ونحويًا، وُلد في البصرة وعاش بعد ذلك في مصر، وتوفي في الفسطاط سنة 213هـ»⁶³. ولابن هشام منزلة جليّة في تاريخ السيرة، على الرغم من كونه لم يُؤلّف فيها مبتدئًا؛ بل "هذب" سيرة ابن إسحاق⁶⁴. وليس بين أيدينا سيرة تامة لابن إسحاق⁶⁵، حتّى نعرف حدود ما أحدثه عمل ابن هشام فيها. والثابت هو أنّ لسيرة ابن إسحاق روايتين، وقد اعتمد ابن هشام رواية زياد بن عبد الله البكائي، وأعرض عن رواية يونس بن بكير؛ على الرغم أنّ كليهما تلمذًا لابن إسحاق في الري⁶⁶، فهل هو محض اختيار؟

لم نلاحظ اهتماماً من لدن المحدثين بهذه الأسئلة على وجاهتها، إذ يُمكن أن تفسّر جوانب من سيرة ابن هشام ظلّت غامضة. فإذا نظرنا في تراجم دينك الراويتين تبيّن أنّ اختيار ابن هشام لرواية البكائي اختيار مقصود؛ فالبكائي (ت 190 هـ) «صاحب رواية السيرة عن ابن إسحاق، وهو أتقن من رواها عنه»⁶⁷. أمّا يونس بن بكير (ت 199 هـ)، فإنّ في ترجمته ما يفسّر نفور عبد الملك بن هشام من الرواية عنه؛ فقد ورد في

62- انظر كتاب علي أومليل: **الخطاب التاريخي**، مرجع سابق، فصل "التراث ومنهجه"، وفصل "التاريخ ومفهومه".

63- سزكين، **تاريخ التراث العربي**، مرجع سابق، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص 106

64- يقول الصّفي في **الوفاي بالوفيات**، عند ترجمته لابن هشام: "نزّل مصر، مهذب السيرة النبوية، سمعها من زياد بن عبد الله البكائي صاحب ابن إسحاق ونقحها..."، تح. أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2000)، ج 19، ص 142

65- القطعة التي نشرها محمّد حميد الله من سيرة ابن إسحاق، تنتهي عند الحديث عن غزوة أحد [السنة الثالثة من الهجرة]، (قونية بتركيا: 1981/1401)، [هناك طبعة صدرت بالمغرب سنة 1976].

66- عبد الحيّ بن أحمد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تح. عبد القادر الأرنؤوط ومحمود الأرنؤوط (دمشق: دار ابن كثير، 1406)، ج 1، ص 257

67- انظر الصّفي، **الوفاي بالوفيات**، مرجع سابق، ج 15، ص 10. ويصيف ابن خلّكان البكائي بالثقة. راجع: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تح. إحسان عباس (لبنان: دار الثقافة، [د.ت.])، ج 2، ص 338

شذرات الذهب، في معرض الحديث عن وفيات سنة تسع وتسعين ومئة: «وفيها يونس بن بكير، أبو بكر الشيباني الكوفي الحافظ، صاحب المغازي، روى عنه الأعمش وخلق. قال ابن معين صدوق، وقال ابن ناصر الدين كان صدوقاً شيعياً من مؤرطي الأعيان، وقال ابن معين: ثقة إلا أنه مرجئ يتبع الشيطان»⁶⁸. ونجد إيراداً للثمتين نفسيهما في ترجمة الصفدي ليونس بن بكير⁶⁹، فيقوى الظن بما ذكرنا من رغبة ابن هشام عن رواية يونس بن بكير بسبب ما رُمي به من إرجاء وتشيع يقدحان في عدالته.

إن على الباحثين أن يوجهوا النظر إلى تلك الرواية المخمّلة، وأن يبيّنوا ما بينها وبين رواية البكائي من فروق ذات مغزى⁷⁰، فُروق يُؤيّدُها ما نعثُر عليه في سيرة ابن هشام من قرائن تدلّ على "تصرفه" في سيرة سلفه ابن إسحاق: «وتاركٌ بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب، ممّا ليس لرسول الله [صلّى الله عليه وآله وسلم] فيه ذكر، ولا نزل فيه القرآن شيء، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له، ولا شاهداً عليه، لما ذكرت من الاختصار، وأشعاراً ذكرها لم أرَ أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يُرَ لنا البكائي بروايته»⁷¹. فكيف "يقدّس" كثير من المحدثين كتاباً في السيرة يشهد صاحبه بأنه حذف "ما يسوء بعض الناس ذكره"؟ لقد كان الرّصافي (ت 1945) ذا عقلٍ في زمانه وفي هذا الزمان أيضاً، إذ استبد بين المحدثين بنقد حصيف لابن هشام، «وعندي أنّ ابن هشام أساء إلى العلم وإلى الحقيقة معاً، باختصاره سيرة ابن إسحاق وحذفه منها أموراً كثيرة، لو ذكرت لكنا من سيرة محمّد على بصيرة أكثر ممّا نحن عليه الآن، لا سيّما حذفه كلّ ما جاء فيها من كلام لخصوم محمّد»⁷².

وتفيد الفقرة، التي أوردناها من سيرة ابن هشام، بأن الروايات القديمة كانت تنزع إلى البساطة والصرّاحة⁷³؛ وهي خصائص سنمحي مع مرور الزمن. لقد اختطّ ابن هشام نهجاً في التعامل مع السيرة أصابت عدواه أغلب كتّابها من بعده، إذ عمدوا إلى التصرف في الروايات طبق رؤاهم المذهبية والسياسية، وهلمّ جرّاً.

68- الحنبلي، شذرات الذهب، مرجع سابق، ج 1، ص 257

69- الصفدي، الوافي بالوفيات، مرجع سابق، ج 29، ص 177، حيث يقول: "قال الشيخ شمس الدين: ممّا ينقم عليه التشيع، وقال ابن معين ثقة إلا أنه مرجئ، وقال العجلي: ضعيف الحديث".

70- حقّق محمّد حميد الله سيرة ابن إسحاق برواية ابن بكير (طبعة مذكورة سابقاً)، واقتصر عمله في المقارنة بين روايتي البكائي وابن بكير على جدول أثبتّه في آخر الكتاب (ص 319-322، من طبعة قونية) ليس فيه سوى أرقام فقرات، وأرقام صفحات لإبراز التشابه.

71- ابن هشام، السيرة النبوية، تح. مصطفى السقا وآخرين، ط 1 (السعودية: دار المغني، 1999)، ص 32

72- معروف الرّصافي، كتاب الشّخصية المحمّدية أو حلّ اللغز المقدّس، ط 1 (ألمانيا: منشورات الجمل، 2002)، ص 130

73- انظر: الدّوري، بحث في نشأة علم التّاريخ، مرجع سابق، ص 25، وص 33

إنّ الطّبري (ت 310 هـ / 922 م)، حَسَبَ الدّوري، «يُمثل قَمّة ما وصلت إليه كتابة التّاريخ عند العرب في فترة التّكوين»⁷⁴. فيم نفسّر هذه الشهادة؟ لقد جمع الطّبري في كتابه سائر الموضوعات من خليقة وأيام ومغاز وفتوح... فصنع تاريخاً تميّز من سائر التّواريخ السّابقة بسرّد حَقّق حوله إجماع الأُمَّة⁷⁵، إذ يعرض في تاريخ الرّسل والملوك الرّوايات ولا يلتفت إلى تأويلها إلا قليلاً. وأصبحت السّيرة مع الطّبري ومؤرّخي القرن الثالث كابن قتيبة واليعقوبي (ت 284 هـ) حلقة من حلقات التّاريخ العالمي، بعد أن كانت أصل التّاريخ (علم السّير والأخبار)، وسوف يرسُخ هذا التقليد في الكتابة التّاريخيّة بعد هذه المرحلة. إنّ "حُجّية" الطّبري التّاريخيّة تسلّطت على القدامى والمحدّثين؛ لكن على الرغم من ما يُقال عن "موضوعيّة" هذا المؤرّخ⁷⁶، فإنه يبقى انتقائياً، إذ يورد حُلْم عاتكة عمّة الرّسول تخفيفاً عن العبّاس الذي حارب الرّسول في بدر وأسر⁷⁷.

ب. سير أخرى

ظهرت، في النّصف الثّاني من القرن الثّالث، تواريخٌ عالميّةٌ كثيرةٌ حاول أصحابها أن يُدرجوا تجربة الأُمَّة الإسلاميّة ضمن تجارب الأمم الأخرى، فأضحت سيرة الرّسول جزءاً من التّاريخ العامّ. وقد غلب على هذه التّصانيف منهج المحدّثين، كما غلب على باقي العلوم في هذا العصر. وتأتي السّيرة النّبوية في كتب أهل القرن الثّالث في مسار تاريخ عالمي، فتنوّق الصّلة بتاريخ الرّسل السّابقين. وهكذا، تتكامل أعمال الأنبياء في التّاريخ؛ وهو ما نصّ عليه القرآن⁷⁸.

ألّف ابن قتيبة (ت 276 هـ) كتاب المعارف، فبدأ بالخليقة وانتهى بأيام المعتصم. وألّف أحمد بن يحيى البلاذري (ت 279 هـ) أنساب الأشراف وهو «كتاب عامّ للتّاريخ الإسلامي في إطار الأنساب»⁷⁹، بدأه بسيرة الرّسول، ثم قصّ سير الخلفاء والأحداث التي كانت في زمانهم. وقد أظهر البلاذري ميلاً إلى العباسيين، ووسم دعوتهم بالهاشميّة⁸⁰.

74- الدّوري، نفسه، ص 55

75- أواميل، الخطاب التّاريخي، مرجع سابق، ص 33، وانظر: فصل "عمل الطّبري التركيبي".

76- حاول الطّبري أن يوسّع الرّواية، فاعتمد على رِوَاة معروفين بميولهم العلوية كأبي مخنف الأزدي (ت 154 هـ). ومن الغرابة أن نرى باحثاً أكاديمياً يؤنّب الطّبري على اعتماده على هذا "الرّواية الشيعي المتعصب"! انظر ص 90، من كتاب علي العربي، أضواء على كتب السّيرة النّبوية، قراءة نقدية (تونس: الدار التونسيّة للنشر، 1991).

77- يظهر العبّاس في هذا الخبر منتصراً للرّسول ضدّ قريش. راجع: تاريخ الطّبري، مرجع سابق، ج 2، ص 428-429

78- (وما محمّد إلا رَسولٌ قدّ خلّفت من قبّله الرّسل) [آل عمران: 144].

79- الدّوري، بحث في نشأة علم التّاريخ، مرجع سابق، ص 49

80- المرجع نفسه، ص 53

أما أبو حنيفة الدّينوري صاحب الأخبار الطوال، فإنه لا يُبدي اهتماماً بتاريخ الأنبياء، ولا تستوقفه السّيرة إلا قليلاً (أسطر)⁸¹. ويُعدّ تاريخ اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب (ت 284 هـ) أهمّ التواريخ التي خلفها أهل القرن الثالث، وهو خلاصة للتاريخ العالمي قبل الإسلام، وللتاريخ الإسلامي حتى سنة تسع وخمسين ومئتين من الهجرة. وتتبع أهميته في موضوعنا من كونه يمثل الرؤية الشيعية في بحر من التواريخ السنية؛ ففي آخر السيرة بصدد أخبار الوفاة، ينقل إلينا اليعقوبي الخبر الآتي عن فاطمة ابنة الرسول: «ودخل إليها في مرضها نساء رسول الله، وغيرهنّ من نساء قريش، فقلن كيف أنت؟ قالت: أجدني والله كارهة لديناكم مسرورة لفراقكم. ألقى الله ورسوله بحسراتٍ منكن. فما حفظ لي الحق، ولا رُعيت منّي الذمة، ولا قُبلت الوصية»⁸². في حين يورد ابن هشام في آخر السيرة أخباراً عن الزهري تمهّد لخلافة أبي بكر: «فلولا مقالة، قالها عمر عند وفاته، لم يشك المسلمون في أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استخلف أبا بكر»⁸³.

تواصل الاهتمام بتاريخ العالم في مؤلفات مؤرخي القرن الرابع، فصنّف أبو الحسن المسعودي (ت 346 هـ) كتابه مروج الذهب ومعادن الجواهر جمع فيه بين التاريخ والجغرافيا واختصر السيرة. وقد ساق الأحداث على السنين، معتمداً على ابن إسحاق والواقدي والطبري⁸⁴. ويُشير المسعودي إلى أنه أتى بالسيرة على عجل، لأنه فصل فيها الكلام في كتاب الأوسط⁸⁵؛ وهو من الكتب التي لم تصل إلينا. وقد كان المسعودي ذا ميول شيعية، وهو من عائلة كوفية تدّعي الانتساب إلى عبد الله بن مسعود⁸⁶.

تفرّعت أجناسٌ أخرى عن السيرة النبوية منذ القرن الثالث، فظهرت كتب الشمائل والدلائل... أما كتب الشمائل، فهي «الكتب التي قصد أصحابها التركيز على ذكر صفاته الخلقية وأخلاقه، صلوات الله وسلامه عليه، وعاداته وفضائله، وسلوكه القويم في الليل والنهار»⁸⁷. وأهمّ هذه الكتب كتاب محمد ابن عيسى الترمذي

81- المرجع نفسه، ص 54-55

82- تاريخ اليعقوبي، ج 2 (بيروت: دار صادر، [د.ت.]). وقد وردت السيرة في الجزء الثاني من هذه الطبعة (ص 7-115)، ج 2، ص 115

83- عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، ط 6 (القاهرة: مكتبة السنة، [د.ت.])، ص 297

84- فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ط 2 (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1989)، ص 117

85- أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، تج. محمد محي الدين عبد الحميد (صيدا؛ بيروت: المكتبة العصرية، 1988)، ج 2، ص 298

86- حياة عماد، تصنيف القدامى في السيرة النبوية، مرجع سابق، ص 36، هامش 96

87- فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية، مرجع سابق، ص 54

(ت 279 هـ) الموسوم بكتاب **الشمائل**⁸⁸، وكتاب **أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه** لأبي محمد عبد الله بن محمد الأصفهاني (ت 369 هـ)⁸⁹.

أما **كتب الدلائل**، «فهي الكتب التي ألفها أصحابها بقصد جمع المعجزات التي ظهرت على يد النبي صلى الله عليه وسلم، مما يدل على نبوته»⁹⁰. وأشهرها **دلائل النبوة** لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت 430 هـ)، و**دلائل النبوة** لأحمد بن الحسين البيهقي (ت 458 هـ)⁹¹. ويختصر البيهقي مأخذ هذه الكتب في قوله: «وقد صنّف جماعة من المتأخرين في المعجزات وغيرها كتباً وأوردوا فيها أخباراً كثيرة من غير تمييز منهم صحيحها من سقيمها، ولا مشهورها من غريبها، ولا مروّيها من موضوعها حتى أنزلها من حسنت نيّته في قبول الأخبار منزلةً واحدةً في القبول، وأنزلها من ساءت عقيدته في قبولها منزلةً واحدةً في الرد»⁹². هذا ما رآه البيهقي، أما الباحث المعاصر فاروق حمادة، فينزع إلى قبول أخبار المعجزات بقوله: «وهي وإن لم يبلّغ واحد منها معيناً القطع؛ لكن مجموعها يُفيد العلم قطعاً»⁹³.

لقد مهّدت كثرة التأليف في الشمائل والدلائل لمرحلة من مراحل التأليف في السيرة ستتضمّم فيها الشخصية المحمّديّة. ويُعدّ كتاب **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** للفاضي عياض (ت 544 هـ) خلاصةً للكتب المتقدّمة، وبداية فعليةً للاتجاه المغالي في تقديس النبي.

ولا نسهو، في دراسة هذه المرحلة، عن الإشارة إلى مؤلّفات مغربيّة في السيرة النبوية، وبخاصّة كتاب أبي محمد علي بن أحمد بن حزم (ت 456 هـ) **جوامع السيرة**⁹⁴، وكتاب أستاذه أبي عمر يوسف بن عبد البرّ (ت 463 هـ) **الدرر في اختصار المغازي والسير**⁹⁵. وسنهتمّ بالكتاب الأخير لأنّ ابن حزم ينقل عن أستاذه بتصرفٍ قليل، وقد بيّن شوقي ضيف مواضع النقول وعدّها في تحقيق كتاب ابن عبد البرّ⁹⁶.

88 - الترمذي: المحدث وصاحب السنن.

89- انظر حول هذه الكتب فصل "الشمائل"، من كتاب فاروق حمادة (مرجع سابق).

90 - فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية، مرجع سابق، ص 57

91- كلاهما مطبوع: أبو نعيم الأصبهاني، **دلائل النبوة** (بيروت: عالم الكتب، [د.ت.]).

- أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، تج. السيد أحمد الصقر (الجمهورية العربية المتحدة: منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1970).

92- البيهقي، **دلائل النبوة**، ج 1، ص 58

93- فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية، مرجع سابق، فصل "كتب الدلائل"، ص 57

94- نُشر الكتاب بتحقيق إحسان عباس (مصر: دار المعارف، [د.ت.]).

95- اعتمدنا على الطبعة التي حقّقها شوقي ضيف: ط 3 (مصر: دار المعارف، 1991).

96- الدرر، ص 15 وما بعدها

تكن قيمة السيرة التي تركها ابن عبد البر في اعتماده على رواية لم تصل إلينا كتبهم كموسى بن عقبة (ت 141 هـ)، ورواية يونس بن بكير عن ابن إسحاق؛ وهي رواية لم تصل إلينا تامة⁹⁷. ولا يخلو كتاب ابن عبد البر من جديد، إذ أورد في أخبار أوائل المسلمين أن عائشة كانت منهم: «ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعثمان بن مظعون، ثم أخواه: قدامة وعبد الله، وابنه: السائب بن عثمان بن مظعون، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وأسما بنت أبي بكر الصديق، وعائشة بنت أبي بكر الصديق، وهي صغيرة»⁹⁸. وفي هذا مخالفة للمشهور من كون النبي بنى بها في المدينة وهي بنت تسع سنين⁹⁹.

ولهذا، لا نؤيد قول من ينفي الجديد عن كتب السيرة المتأخرة، وهو رأي ذهب إليه حياة عامو: «يُمكن القول إن جميع كتب السيرة التي تلت سيرة ابن هشام ما هي إلا تقليد ومحاكاة لهذا الكتاب، مع إضفاء نوع من التضخيم والتمجيد لشخصية الرسول، وبعض صحابته ولغزواته»¹⁰⁰. ونجد ما يشبه هذا الرأي لدى علي العريبي، إذ اعتبر مرحلة ما بعد القاضي عياض "مرحلة شرح وتلخيص" في كتابة السيرة. وفضل الكاتب على القرنين الرابع والخامس، فلم يذكر سيرة واحدة بين الطبري (ت 310 هـ) والقاضي عياض (ت 544 هـ)؛ وهو ما يفهم منه انقطاع عن التأليف في السيرة¹⁰¹.

4.1. سيرة السيرة بعد القرن الخامس

دخل التأليف في السيرة مرحلة جديدة، ميّزتها ضخامة التأليف والإغراق في تقصي خصائص الرسول. وقد رأينا أن نورخ لكتابة السيرة في هذه الفترة، من خلال النظر في أهم المصادر التي يكثر ذكرها في أعمال المحدثين.

97- يتحدث ابن عبد البر عن مصادره بصدد حجة الوداع، فيذكر موسى بن عقبة، وروايته البكائي ويونس بن بكير عن ابن إسحاق. نفسه، ص 259

98- المرجع نفسه، ص 39

99- قال البلاذري: "وتزوجها بمكّة، وهي ابنة سبع، ويقال سبع. وابنتى بها وهي ابنة تسع في شوال سنة إحدى من الهجرة". أنساب الأشراف، مرجع سابق، ج 2، ص 38. وقد ناقش شوقي ضيف هذه المسألة في مقممة الطبعة الأولى من كتاب النور، ورجح رأي ابن عبد البر في كون سن عائشة حين بنى بها الرسول ناهز الثماني عشرة سنة. ص 13، من كتاب ابن عبد البر بتحقيق شوقي ضيف.

100- حياة عامو، تصنيف القدامي في السيرة النبوية، ص 42

101- قسم أطوار السيرة إلى ثلاثة: النشأة والازدهار، ثم طور الشرح والتلخيص، فطور الانبعاث والتجديد. وتدلل العناوين على تقدير للطور الأول واستنقاص من الطور الأوسط. أضواء على كتب السيرة النبوية، مرجع سابق.

• الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض

ذُكر في ترجمة القاضي عياض أنه أندلسي الأصل و"سبتي الدار والميلاد"، وقد تُوفي سنة أربع وأربعين وخمسمئة هجرياً¹⁰²؛ وهو عالم مالكي من أهل المغرب، وعَصْرِيُ الدَّعوة الموحَّديَّة الشيعيَّة. ويُعدُّ كتاب الشفا ضمن كتب السيرة النبوية، على الرغم من أنَّ مواضعه تدلُّ على كونه مصنفاً عن الرسول وعظيم قدره، أكثر من كونه سيرةً متنسقةً الفصول، تتبع خطة التأليف المعهودة¹⁰³، إذ يقول القاضي عياض في مقدِّمة الكتاب: «فإنك كررت عليَّ السؤال في مجموع يتضمَّن التعريف بقدر المصطفى عليه الصلّاة والسّلام، وما يجب له من توقير وإكرام، وما حُكِّم من لم يوفِّ واجب عظيم ذلك القدر، أو قصر في حقَّ منصبه الجليل فلامَّة ظُفر»¹⁰⁴. وأقسام الكتاب الأربعة تؤكد المقاصد التي ذكرها؛ وهي: "في تعظيم الله تعالى له" (القسم الأوّل)، و"في ما يجب على الأنام من حقوقه" (القسم الثّاني)، و"في ما يجب للنبيّ" (القسم الثّالث)، و"في تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقصه" (القسم الرّابع).

إنَّ أقسام الكتاب تدلُّ على تضخُّم الصّورة النبوية، وارتفاعها عن حدود البشريَّة؛ بل إنَّ البشريَّة التي هي أصل في الرسول حسب القرآن¹⁰⁵، تصبح عرضاً طارئاً، إذ يخصّص الكاتب الباب الثّاني من القسم الثّالث لـ "أحواله الدنيويَّة، وما يجوز طرّوه عليه من الأعراض البشريَّة".

عاش القاضي عياض في عهد انتشرت فيه الدَّعوة الموحَّديَّة الشيعيَّة، وكثرت هجمات النصارى على المغرب الإسلامي بالأندلس خاصَّة؛ فحاول هذا العالم السنّي المالكي أن يرفع مقام النبيّ درجةً لا يُضاهيه فيها نبيّ ولا مهديّ معصوم، وقد نفى الموحِّدون القاضي عياضاً جزاء دفاعه عن السُّنة¹⁰⁶. وتظهر في فصول الكتاب نزعة إلى التقديس المطلق للرسول، ورغبة في مساواته بالأنبياء السّابقين، ثمّ تفضيله عليهم؛ ومن ذلك ما ذكره في القسم الأوّل: «كلّ آية أوتيها نبيّ من الأنبياء عليهم السّلام، فقد أُوتي مثلها نبينا صلى الله عليه وسلم، وحُصِّن من بينهم بتفضيل الرّؤية»¹⁰⁷. وقد جمع القاضي عياض في الشفا قصصاً عجيبيّاً أثار نقد ثلّة من

102- انظر ترجمته المأخوذة من كتاب الذبّاج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون المالكي في مقدِّمة كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، جزآن في مجلّد واحد (بيروت: دار الفكر، 1988).

103- تكاد خطة التأليف في السيرة تكون ثابتة لدى أغلب القدامى وحتىّ المحدثين، إذ يبدؤون بأخبار المبتدأ (قبل البعثة)، ثمّ يهتمون بالوحي ونزوله، فالدَّعوة بمكّة، ثمّ غزوات الرسول بالمدينة وهكذا حتى وفاته.

104- كتاب الشفا، مرجع سابق، ص 4

105- (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) [الكهف: 110].

(قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) [الإسراء: 93].

106- انظر في هذا: علي العربي، أضواء على كتب السيرة النبوية، مرجع سابق، ص 92

107- الشفا، مرجع سابق، ص 198

المُحدّثين، كمعروف الرّصافي صاحب كتاب الشخصية المحمدية أو حل اللّغز المقدّس (1933)¹⁰⁸. لقد استجاب القاضي عياض لحاجات وقته من مُساجلة الشّعبة والنّصاري، فما حاجة المُحدّثين إلى كتابه؟

• الرّوض الأنف، للسهيلي

أبو القاسم عبد الرحمان بن عبد الله السّهيلي أندلسي، توفي سنة إحدى وثمانين وخمسمئة هجرياً، وهو صاحب الرّوض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام¹⁰⁹. ومضمون الكتاب يُطابق عنوانه، إذ هو شرح لسيرة ابن هشام، زاده الشّارح تعاليفاً وضبطاً؛ كما نصّ على ذلك في مقدّمة الكتاب: «فإنّي قد انتحيت في هذا الإملاء بعد استخارة ذي الطّول، والاستعانة لمن له القدرة والحوّل إلى إيضاح ما وقع في سيرة رسول الله - صلّى الله عليه وسلم- التي سبق إلى تأليفها، أبو بكر محمّد بن إسحاق المطّليبي، ولخصّها عبد الملك بن هشام المعافري المصري النسابة النّحوي، بما بلغني علمه، ويُسّر لي فهمه: من لفظ غريب، أو إعراب غامض، أو كلام مستغلق، أو نسب عويص، أو موضع فقه ينبغي التنبيه عليه، أو خبر ناقص يُوجد السبيل إلى تتمّته»¹¹⁰.

وهكذا، بدأ خطاب السيرة يدور حول نفسه في عمليّة تأويل لا تنتهي¹¹¹؛ من خلال الشّرح المباشر كما فعل السّهيلي مع سيرة ابن هشام، أو من خلال الاقتباس واعتماد اللاحق على الأصول السابقة كما هو شأن أغلب السّير القديمة والحديثة... وما على الباحث إلا النظر في دلالة التّأويل، فإذا كانت الوقائع لبّاً والتّأويل قشراً، فإنّ قشور بعض الثمار أشهى من لبّها¹¹².

• ابن الأثير، صاحب الكامل في التّاريخ

مثّل الكامل في التّاريخ أهمّ حلقات التّأليف في السيرة بعد كتاب الشّفا للقاضي عياض، وصاحبه هو أبو الحسن محمّد بن محمّد الشيباني المعروف بابن الأثير، ينتمي إلى عائلة أرسنقراطية، استقرّت بالموصل، وهو

108- معروف الرّصافي (ت 1945)، كتاب الشخصية المحمدية، مصدر سابق، ص 67، حيث ينقد الكاتب ما أورده القاضي عياض من خبر في انتحار حمار الرسول جزّاً عليه: «ومن الغريب أنّ القاضي عياض لوّث كتابه الشّفا بذكر هذا الحديث فيه».

109- تحقيق طه عبد الرّؤوف سعد (بيروت: دار الفكر، 1981).

110- نفسه، ص 3-4.

111- Antoine Compagnon, *La seconde main ou le travail de la citation* (Paris: Éditions du Seuil, 1979), p. 155: «Nous avons lu un livre, nous le commentons. En le commentant, nous nous apercevons que ce livre n'est lui-même qu'un commentaire, la mise en livre d'autres livres auxquels il renvoie...».

112- Carr, *Qu'est-ce que l'histoire?*, op. cit., p. 55

أخو الوزير ضياء الدين بن الأثير (صاحب كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر)، وقد توفي ابن الأثير المؤرخ سنة ثلاثين وسبعمئة من الهجرة¹¹³.

إن كتاب الكامل في التاريخ عالمي، كما يذكر صاحبه في الخطبة: «شرعت في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب، وما بينهما، ليكون تذكراً لي، أرجعه خوف النسيان، وأتي فيه بالحوادث، والكائنات من أول الزمان متتابعة يتلو بعضها بعضاً، إلى وقتنا هذا»¹¹⁴. وقد أورد السيرة النبوية طي هذا المجرى التاريخي، فبدأها بذكر نسب رسول الله، وذكر أخبار آبائه وأجداده، ثم سرد السيرة، حتى "ذكر مرض رسول الله ووفاته"¹¹⁵.

يمثل كتاب ابن الأثير بداية فعلية سيرسُخ فيها منهج الاستنساخ وتلخيص كتب السابقين، إذ اتخذ الكاتب من تاريخ الطبري عمدة: «وقد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد، ومن تأمله علم صحة ذلك، فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنّفه الإمام أبو جعفر الطبري، إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه، والمرجع عند الاختلاف إليه. فأخذت ما فيه من جميع تراجمه، ولم أخل بترجمة واحدة منها»¹¹⁶. ويذكر ابن الأثير أنه اختار من روايات الطبري أتمها، وأضاف إليها من غيرها¹¹⁷. وهكذا، يُضيق اللاحق أفق السابق! فتصير السيرة رواية مثالية، ويقع تصفية الروايات التي تزج الضمير الإسلامي (يشنع الحديث بها).

• ابن كثير

أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير (ت 774 هـ/ 1331 م) صاحب البداية والنهاية، وهو تاريخ "أنبياء وملوك" هذا فيه حدو الطبري، إذ يذكر في مقدمته أنه مُورد: «قصص النبيين، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل، وأيام الجاهلية، حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه، فنذكر سيرته كما ينبغي، فتشفي الصدور والغليل، وتزيح الداء عن العليل»¹¹⁸. لقد ضمّن ابن كثير كسائر المؤرخين المسلمين الكبار سيرة النبي في مسار التاريخ الإنساني العام. وبهذا، لم تغب السيرة في مصنّفات أهل القرن الثامن، ولم يكونوا مجرد ناقلين كما يُوحي بذلك بعض الباحثين؛ فابن كثير يُعرض في تاريخه عن أخبار في سبب زواج

113- الذهبي، سير أعلام النبلاء (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1413هـ)، ج 22، ص 354-356

114- الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، 11 ج (بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ)، ج 1، ص 6

115- حدود السيرة في كتاب الكامل هي: من (ج 1، ص 544) إلى (ج 2، ص 188)

116- المرجع نفسه، ج 1، ص 6-7

117- المرجع نفسه، ج 1، ص 7

118- ابن كثير، البداية والنهاية، 14 ج (بيروت: 1966)، ج 1، ص 6

الرّسول من زينب بنت جَحش، إذ يقول إنّ أخبار السّلف في هذه المسألة «غريبة، وبعضها فيه نظر تركناها»¹¹⁹. ويضرب الكاتب عن قصّة الغرائيق: «وذكروا قصّة الغرائيق وقد أحببنا الإضراب عن ذكرها صفحاً، لئلا يسمّعها من لا يضعها على مواضعها»¹²⁰. لكن يبدو أنّ سبب إعراض الكاتب عن هذه الأخبار هو نزعه إلى التّمجيد والإطراء، إذ أجاز الكاتب رواية الإسرائيليات التي لا تُخالف الكتاب والسنة¹²¹.

ترجم غانييه (Gagnier) كتاب أبي الفدا إلى اللاتينية سنة ثلاثٍ وعشرينٍ وسبعمئة وألف، ونقله إلى الفرنسيّة نويل دي فارجي (Noël des Vergers) سنة سبعمِ وثلاثينٍ وثمانمئة وألف¹²²؛ فساهم الكتاب على ما حوى من إسرائيليّات في تشكيل الصّورة الغربيّة الحديثة عن الإسلام والرّسول.

• المقريري

أبو العبّاس تقّي الدّين أحمد بن علي المقريري، وُلد بالقاهرة سنة ستٍ وستينٍ وسبعمئة، وتوفي بها سنة خمسٍ وأربعينٍ وثمانمئة من الهجرة، وقد تلمذ لابن خلدون ووليّ خطباً رسميّة متنوّعة كحسبة القاهرة والقضاء...¹²³، وهو صاحب سيرة مشهورة للرّسول: إمتاع الأسماع بما للنبيّ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، عرض فيها شمائل النبيّ، وتحدّث عن آله، وسيرته ودقائق حياته¹²⁴.

كتب المقريري سيرة الرّسول في زمن كثر فيه التّأليف في التّاريخ عامّة، وخصّوصاً السّيرة¹²⁵. وقد رافق هذا التّضخّم في الإنتاج التّاريخي فيضاً لأنهار الرواية، حمل معه الخبر العجيب والأساطير، فتنبّه القدامى إلى ذلك وانتقدوه، إذ قال السّخاوي عن كتاب المقريري إنّ «فيه الكثير ممّا يُنتقد»¹²⁶.

ذهب كثير من الكُتّاب المعاصرين إلى أنّ كتاب الإمتاع آخر ما صنّف في السّيرة قبل عصر النّهضة الحديثة، وهذا الكلام مثال للأغاليط الشائعة عن كتابة السّيرة. ومن ذلك ما ذكره فاروق أبو زيد في مقدّمة

119- المرجع نفسه، ج 4، ص 146

120- المرجع نفسه، ج 3، ص 90

121- المرجع نفسه، ج 1، ص 6

122- Régis Blachère, *Le problème de Mahomet: essai de biographie critique du fondateur de l'Islam* (Paris: P.U.F, 1952), p. 9

123- شاكر مصطفى، التّاريخ والمورخون: دراسة في تطوّر علم التّاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، ط 1 (بيروت: دار العِلْم للملايين، 1990)، ج 3، ص 140-151

124- المرجع نفسه، ص 146-147

125- عدّ شاكر مصطفى 28 مؤلفاً في السّيرة لكُتّاب مصر المملوكية (ص 93)، وهو يرى أنّ القرنين الثامن والتاسع "كانا قرنيّ التّاريخ بامتياز". المرجع نفسه، ج 3، ص 101

126- السّخاوي، الإعلان بالتّوبيخ، مرجع سابق، ص 107

تحقيقه لكتاب الطهطاوي نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز: «كان "نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز" أول كتاب وُضع في السيرة النبوية في العصر الحديث.. فقد انقطع المؤرخون عن كتابة السيرة على كثرة ما كُتب فيها من قبل، نيفاً وأربعة قرون.. وكان كتاب إمتاع الأسماع بما للرسول من خولة وحفدة ومتاع للمؤرخ المصري تقي الدين المقرئ في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي آخر ما كُتب فيها»¹²⁷. ونجد الرأي نفسه في كتاب حسين فوزي النجار: هيكل وحياة محمد¹²⁸.

وإن في ردّ محمد زكريا عناني على فاروق أبي زيد نقضا لآراء هؤلاء الكُتاب جميعاً: «وهذا رأي عجيب، فكيف يفترض فرضاً أنّ العلماء المسلمين يهملون تناول السيرة النبوية المشرفة طيلة أربعة قرون متلاحقة، أي منذ المقرئ المتوفى سنة 845 للهجرة؟ وبحسب المرء -لكي يتبين مدى خطأ هذا القول- أن يعود إلى كشف الظنون أو إلى هديّة العارفين أو إيضاح المكنون، بل بحسبه أن يُلقَى نظرة سريعة على معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة ليوسف إيلان سرقيس، أو على فهرست دار الكتب المصرية، وخاصة الجزء الخامس ليجد نفسه أمام مئات المؤلفات في السيرة النبوية، كُتبت كلّها في خلال هذه القرون الأربعة التي زعموا أنّ المؤرخين لم يلتفتوا في خلالها لسيرة سيّد البشرية»¹²⁹. فهل أصابت دراسة السيرة عدوى الاستنساخ التي أصابت نصوصها الأصليّة؟

• الشامي صاحب سبل الهدى والرّشاد

إنّ سبل الهدى والرّشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الشامي (ت 942 هـ/ 1535 م)¹³⁰ من مشهورات السيرة القديمة، والكتاب موسوعة في السيرة يضمّ ألف باب مُفصّلة في أوله. وقد ذكر الشامي مصادره في المقدمة، فقال: «فهذا كتاب اقتضيته من أكثر من ثلاثمئة كتاب، وتحريّت فيه الصواب، ذكرت فيه قطرات، من بحار فضائل سيدنا رسول صلى الله عليه وسلّم من مبدأ خلق سيدنا آدم صلى الله عليه وسلّم، وأعلام نبوّته، وشمائله وسيرته وأفعاله وأحواله وتقلّباته، إلى أن نقله إلى أعلى جنّاته»¹³¹.

127- الطهطاوي، محمد صلى الله عليه وسلم، نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، دراسة وتحقيق فاروق أبو زيد، (القاهرة: دار الفكر والفن، 1976)، ج 1، ص 7

128- حسين فوزي النجار، هيكل وحياة محمد، منهج في دراسة التاريخ الإسلامي، (مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، [د.ت.])، ص 2، فقرة 2

129- محمد زكريا عناني، "محمد صلى الله عليه وسلم، نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، تأليف رفاعة رافع الطهطاوي، دراسة وتحقيق: د. فاروق أبو زيد"، مجلة الثقافة العربيّة (القاهرة)، العدد 39 (ديسمبر 1976)، ص 117-118

130- ترجمته في: أحمد طربين، التاريخ والمؤرخون في العصر الحديث ([د.ن.])، [د.ت.])، ص 31

131- محمد بن يوسف الشامي، سبل الهدى والرّشاد في سيرة خير العباد، تح. مصطفى عبد الواحد، ج 12 (القاهرة: 1997)، ج 1، ص 1

لقد تضخّم التّأليف في السّيرة على عهد الشّامي وبعده، ونتج من ذلك جمعٌ لمرويّات غزيرة. وهكذا، تسرّبت أساطيرٌ كثيرةٌ إلى مصنّفات المتأخّرين، ولا شكّ في أنّ السّياق الثقافي العام الذي اتسم بانحصار العقل أضفى طابعه على تلك التّصانيف، فعكست مشاغل عصرها أكثر من إخبارها عن عصر النبيّ.

• إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، لعليّ بن برهان الدّين الحلبي

صاحب هذه السّيرة هو نور الدّين بن برهان الدّين الحلبي (ت 1044 هـ/1634م)، عالم شافعي من أهل القاهرة، وفيها تولّى التدريس بالمدرسة الصّلاحية¹³². وتُعرف سيرة الحلبي بـ *السّيرة الحلبيّة*، وهي أكثر السّير المتأخرة شهرة، ويكثر ذكرها في كتب السّيرة الحديثة.

لقد استحال العلم على عهد الحلبي جمعاً، يظهر ذلك في مقدّمة المؤلّف عندما يتحدّث عن مصادره، وهما تحديداً: *عيون الأثر لابن سيّد الناس* (ت 734 هـ/ 1334 م)¹³³، و*السّيرة الشّامية*، وفيهما يقول: «فلما رأيت السّيرتين المذكورتين على الوجه الذي لا يكاد يُنظر إليه، لما اشتملتنا عليه، عنّ لي أن ألخص من تينك السّيرتين أنموذجاً لطيفاً، يروق الأحداق، ويحلو للأذواق، يُقرأ مع ما أضمه إليه بين يديّ المشايخ على غاية الانسجام، ونهاية الانتظام»¹³⁴. ولا يُخفي الحلبي تساهله في الرواية إذا لم تتعلّق بالحلال والحرام¹³⁵. وهكذا، ضاعت جهود ابن خلدون السّابقة في تحرير التاريخ من أسر العلوم الشرعيّة، وإحاقه بالعلوم الحكميّة.

5.1. فجر التّأليف الحديثة

لم ينقطع الكُتاب العرب عن كتابة السّيرة النبوية، كما اتّضح من خلال الحديث عن سيرة تقيّ الدّين المقرئزي (ت 845 هـ/ 1441 م)، واستمرّ تصنيفهم للسّير حتّى دخلت الأزمنة الحديثة، فما هي الأزمنة الحديثة؟

132- أحمد طربين، *التّاريخ والمؤرّخون*، مرجع سابق، ص 25

133- محمّد بن محمّد سيّد الناس، *عيون الأثر في فنون المغازي والشّمانل السّير*، ج 2، ط 3 (بيروت: 1982).

134- الحلبي، *إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون*، ج 3 (بيروت: دار إحياء التّراث العربي، [د.ت.])، ج 1، ص 4

135- المرجع نفسه والصفحة.

يُميّز الباحثون في تاريخ الغرب وفكره بين حقب ثلاث مُتعاقبة مختلفة هي: العصر الوسيط (MoyenÂge)، وعصر النهضة (Renaissance)، والأزمة الحديثة (Temps modernes)¹³⁶. وتأتي هذه الحقب، بدهاءة، بعد "التاريخ القديم" الذي ارتبط بحضارة الإغريق والرومان.

إن أغلب الدارسين يرون أنّ الفترة الواقعة بين أواخر القرن الخامس عشر وأواسط القرن السادس عشر كانت محض النهضة الأوروبية؛ حتى أنّ بعضهم حصرها بين سنتي تسعين وأربعمئة وألف، وستين وخمسمئة وألف¹³⁷. واستناداً إلى هذا الرأي، تبدأ الأزمة الحديثة في أواسط القرن السادس عشر، أي بعد عصر النهضة؛ لكنّ باحثين آخرين يُدرجون "النهضة" ضمن "الأزمة الحديثة". ويذهب بعضهم إلى أنّ سقوط الإمبراطورية البيزنطية (1453)، أو اكتشاف القارة الأمريكية (1492) يُمثّل بداية التاريخ الحديث.

لم تكن البلاد العربية تعيش بمعزل عن هذه التحوّلات الكونية الكبرى؛ فسقوط القسطنطينية البيزنطية، وسيادة الدولة العثمانية محلّها، وبسط نفوذها على أغلب البلاد العربية، بتغلّب السلطان العثماني سليم الأول على دولة المماليك بمصر سنة سبعمائة وعشرون وخمسمئة وألف¹³⁸... كلها عوامل جعلت العرب يدخلون الأزمة الحديثة باعتبارهم جزءاً من هذه الدولة¹³⁹. فهل يعدّ مصطلح "حديث" مفهوم "الأزمة الحديثة"؟

إنّ معاني "حديث" (Moderne) في الشرق والغرب لم تخرج عن إفادة معنى الجديد في تقابل مع القديم، إذ يقول التوحيدى (ت 400 هـ): «قال: ما الفرق بين حدث وحدث؟ قلت لا فرق بينهما إلا من جهة أنّ حدث تابع لقدم، لأنّه يقال: أخذه ما قدم وما حدث»¹⁴⁰. وفي الثقافة الغربية كذلك، يُدرك ضرب من المقابلة بين الحديث والقديم: «إنّ "الحديث" يُعارض "القديم" منذ زمن طويل»¹⁴¹؛ فالحديث قريب من معنى "الأزمة الحديثة" في التعبير عن الحقب التاريخية الجديدة التي أعقبت العصر الوسيط.

136- Abel Jeannière, «Qu'est-ce que la modernité?», *Études* (Paris), Tome 373, n° 5, (novembre 1990).

137- R. Mousnier, *Leçons sur l'humanisme et la renaissance de la fin du XV^e siècle au milieu du XVI^e* (Paris V: Centre de documentation universitaire), p. 17

138- فرانتس تشنر وآخرون، تاريخ العالم العربي الحديث (بيروت: دار صادر، 1975)، ص 178-179

139- فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ط.3، (عمّان: دار الشروق، 1988)، ص 107

140- أبو حيان التوحيدى، الإمتاع والمؤانسة، تج. غريد الشيخ محمد وإيمان الشيخ محمد، ط 1 (بيروت: دار الكتاب العربي، 2004)، اللبلة الأولى، ص 22

141- Henri Lefebvre, *Introduction à la modernité* (Paris: Éditions de Minuit, 1962), p. 167

أما الحداثة فهي مفهوم إيديولوجي يقوم على تقريظ الجديد والاحتفاء به، وحتىّ تقديسه¹⁴²؛ فليس مجرد الانتماء إلى الحقبة التاريخية الجديدة يجعل المرء "حداثياً" إلا من حيث الانتماء الزماني.

اختلف المثقفون العرب المحدثون في تحديد بداية التاريخ الحديث؛ فمنهم من جعل حركات الإصلاح الديني بداية لهذا التاريخ، وذهب إلى أنّ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت 1792) إلى التوحيد والاجتهاد تُمثل منطلق التجديد، الذي تابعه جمال الدين الأفغاني (ت 1897) وتلميذه محمد عبده (ت 1905). ورأى فريق آخر أنّ اتصال البلاد العربية بالغرب في أواخر القرن الثامن عشر، عن طريق حملة نابليون (1798-1801)، هو بداية لاندرج العرب في التاريخ الحديث¹⁴³. ولا نرى كبير اختلاف بين هذه المقالات، إذ يمكن أن نعدّ أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر عتبة الدخول في التاريخ الحديث.

إنّ استعمالنا لعبارة "حديث" في هذا البحث يعني الانتماء إلى الفترة التي حاولنا تحديدها، ولا يُفيد حتماً معاني الحداثة باعتبارها معياراً. وها هنا نذكر، لمزيد الإبانة، كلمة لابن قتيبة (ت 276 هـ): «ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كلّ دهر، وجعل كلّ قديم حديثاً في عصره»¹⁴⁴. إذن، نشأ كون جديد، وطرأت حاجات وقت طريف؛ فأثر ذلك في علماء الإسلام كافة، فطفقوا يكتبون السير النبوية، فنفتت. ويُمكن أن نعدّ مختصر سيرة الرسول¹⁴⁵ لمحمد بن عبد الوهاب (ت 1792 هـ) باكور السير الحديثة، لاندرجها في الأزمنة الحديثة، على الرغم من نزوع صاحبها إلى تلخيص أمّهات الكتب القديمة... ثمّ ألف مفتي الشافعية بمكة أحمد بن زيني دحلان (ت 1886 م): السيرة النبوية والآثار المحمدية¹⁴⁶، فنحا فيها إلى تلخيص السير المتأخرة، كما ذكر في مقدمتها.

ولعلّ السيرة التي صنّفها الشيخ رفاع الطهطاوي (ت 1873 هـ)، "نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، صلى الله عليه وسلم"¹⁴⁷، تمثّل معلماً هاماً في تاريخ التصنيف في السيرة؛ بل اعتبرها كثير من الدارسين أول ما صنّف في السيرة خلال العصر الحديث.

142- Ibid., p. 10: «Cette conscience exaltante-exaltée du nouveau». Et p. 170: «Le modernisme, c'est-à-dire le culte du nouveau pour le nouveau».

143- جعل ألبرت حوراني حملة نابليون على مصر بداية لعصر النهضة العربية، الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939، ترجمة كريم عزقول (بيروت: دار نوفل، 1997).

144- ابن قتيبة، الشعر والشعراء (البدن: بيرل، 1902)، ص 5

145- محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم (بيروت: دار العربية، [د.ت.]).

146- أحمد بن زيني دحلان، السيرة النبوية والآثار المحمدية، 2 ج (بيروت: دار المعرفة، د.ت.).

147- ستكون هذه السيرة مصدراً من مصادر بحثنا، وقد اعتمدنا على طبعة بتحقيق عبد الرحمان حسن محمود، وفاروق حامد بدر، 2 ج في 1 (القاهرة: مكتبة الآداب، 1990).

تبيّن، من خلال هذه المراجعة لتاريخ تدوين السيرة النبوية منذ النشأة الأولى، أنّ عمل الرواة الأوائل الذين لم تصل إلينا تقييداتهم في المغازي والسيرة كان وثيق الصلة بالأمويين وحكمهم؛ فعروة ابن الزبير اتصل بالخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (65-86 هـ) في دمشق، ثمّ بابنه الوليد من بعده، وكان كثير الرواية عن خالته عائشة، ويظهر انحيازه في روايته عن عائشة لأحاديث في مرض الرسول، ثمّهد لاستخلاف أبي بكر.

أمّا الزهري، مؤسس مدرسة المغازي بالمدينة، فقد أجزل الحُكام الأمويين عطاءه، واستقضاه يزيد ابن عبد الملك (101-105 هـ)... فخضعت روايته لاختيار أموي. ولقد اعتمد ابن إسحاق على مرويات الزهري عن عروة بن الزبير، واعتمد اللاجقون منذ ابن هشام على سيرة ابن إسحاق. واستمرّ التّأليف في السيرة دون انقطاع، على خلاف ما يُردّد بعض الدّارسين، ولم تتكسر حلقة عروة- الزهري- ابن إسحاق حتّى فجر العصر الحديث، إذ نزع ابن عبد الوهّاب وأحمد بن زيني دحلان إلى تلخيص السّير القديمة. فهل ستواصل المرويات العتيقة المتلبّسة بالأهواء القديمة، والتّاريخ الإسلامي القديم سيادتها على أذهان المُحدّثين، أم سيشهد القرن العشرون تجديدا فعليّا في كتابة سيرة النبي، لا سيّما بعد اطلاع الكُتاب العرب على الثّقافة الغربيّة الحديثة، وعلى الثّورة المعرفيّة في مجال الفيلولوجيا والتّاريخ المُقارن، ودراسة الأديان؟



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com